IUGJEPS
Vol 29, No 1, 2021, pp 61 -79

ISSN 2410-5201

مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية (عقيدة – تفسير – حديث)

تاريخ الإرسال (2019-10-09)، تاريخ قبول النشر (2020-02-10)

اقتران أسماء الله الحسنى: العزيز والفتاح والخلاق باسمه العليم في السياق القرآني

اسم الباحث: أ.د. زياد خليل الدغامين

اسم الجامعة والبلد: قسم أصول الدين-كلية الشريعة-جامعة آل البيت-الأردن

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: zdaghamin@hotmail.com

https://doi.org/10.33976/IUGJIS.29.1/2021/4

الملخص:

يتوجه هذا البحث إلى دراسة موضوعية استقرائية لاقتران ثلاثة من أسماء الله الحسنى باسمه تعالى العليم بوصفه أكثر الأسماء الحسنى وروداً في القرآن الكريم. وهذه الأسماء هي: العزيز والفتاح والخلاّق. ويهدف إلى التعرّف على السياق الذي ورد فيه كل اقتران، فيبين القضايا التي تستلزم ورود هذا الاقتران في فواصل الآيات. وخلص إلى جملة من النتائج أبرزها: أنّ التناسب البديع في هذا الاقتران يعد مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن، وأنّ اقتران اسم الله العزيز باسمه العليم -مثلاً- لم يرد إلا في سياق الحديث عن كتابين عظيمين: هما كتاب الوحي - كلام الله- والإشادة به بوصفه حكم الله وشريعته بين البشر، ومنهج الحياة الذي يهدي للتي هي أقوم، والهادي والموجّه لكل ما يقوم به الإنسان من نشاط فكري وعلمي وعملي. وكتاب الكون - فعل الله- وبدائع صنعه تعالى فيه بوصفه الدالّ على وحدانية الله المتفرّد بالخلق والأمر.

الكلمات المفتاحية: العزيز، الفتاح، الخلاق، العليم، السياق القرآني، الاقتران الثنائي.

The Pairing of Allah's Names: His names The Exalted in Might, The One to Judge, or The Creator with His name The All Knowing in The Qur'an

Abstract:

This paper investigates the pairing of three of Allah's names, namely the Exalted in Might, the One to Judge, and the Creator with His name the All Knowing. The study aims at defining the contexts of occurrence of each of these three pairings. The study yielded a number of conclusions. The most important of which is that each pairing suits and coheres with its contexts of occurrence; and this fact attests to the inimitability of the Qur'an. For example, the pairing of Allah's name the Exalted in Might with His name the All Knowing occurs nowhere but in contexts that discuss two great books: the Book of revelations, i.e. Allah's Word, and how it contains a complete manual for a righteous and prosperous life, and how it guides all man's activities whether intellectual, scientific, or physical; and the book of the universe, i.e., Allah's creations, and how their magnificent inimitability attests to the oneness of Allah.

Key words: The Exalted in Power , The Supreme Solver, The Creator, The All-Knowing, The Quranic .Context, Binary Pairing

مقدمة:

لا تقف وجوه الإعجاز القرآني عند حدّ معين، ولا تنحصر في عدد معين، فبمرور الزمان، وتقلب الليالي والأيام تتضاعف وجوه الإعجاز القرآني، ويتكشف كل يوم الجديد في إعجازه وتظهر دلائل صدقه، وأمارات الإيمان به؛ وهو الكتاب الذي لا تشبع من العلماء، ولا يخلق على كثرة الردّ. ولا يزال إعجاز نظم القرآن البياني يتخذ مظاهرة متنوعة، فمن إعجاز الحرف، والكلمة، والجملة والفاصلة، والآية، إلى إعجاز الأسلوب بما يتضمنه من المعاني والمباني، والفصاحة والبلاغة، وكل تلك المظاهر تدخل في إعجاز نظم القرآن الكريم. وقد توسّع العلماء في بيان هذا الوجه، بل عدّه بعضهم هو الوجه في إعجازه.

ومن هذا الوجه في إعجاز النظم تبرز ظاهرة اقتران أسماء الله الحسنى في فواصل الآيات القرآنية – على الأعم الأغلب – بوصفها ظاهرة فريدة في السياق القرآني، وتتبوأ مكانة رفيعة في هذا الوجه، فما النظام الذي يسير عليه إلا وجه من وجوه إعجاز نظم القرآن، خصوصاً إذا تمّ النظر في علاقته بالقضية المحورية في الآية الكريمة من حيث موضوعها ومضمونها، فعلاقة الاقتران بالآية علاقة وثيقة، وارتباطه أو وروده في السورة التي ورد فيها يتطلب بحثاً لإظهار تلك البصمات الإضافية في الإعجاز القرآني.

ناهيك، بعد هذا كله عن الآثار الإيجابية النفسية، والمعاني الروحية التي تحدثها هذه الأسماء في نفس المخاطب، فللأسماء الحسنى مضامين ورسائل مهمّة تؤدّيها، من أبرزها تلك التطمينات والبشائر التي تزفّها الأسماء الحسنى للعبد، فتدفعه إلى الاستقامة على أمر الله، فهي بشائر حسنى. وهي – كذلك – رقابات صارمة وضمانات أكيدة تدفع إلى الالتزام بهداية الوحي، تعد وتتوعّد، وترغّب وترهّب، وتنذر وتبشّر، وقبل هذا كله، تعلّم وتعرّف بالله ربّ العالمين.

وهذا البحث سيعرض ثلاثة من أسماء الله الحسنى حين تقترن باسم الله العليم بوصفه من أكثر الأسماء الحسنى وروداً في القرآن الكريم، وهذه الأسماء هي: العزيز، والفتاح، والخلاّق. وهي دراسة مقتصرة على البحث في هذا الاقتران فحسب، وتدرسه في السياق القرآني على نحو موضوعي استقرائي، ينظر في السياق الذي ورد فيه كل اقتران؛ ليخرج بنتيجة يحاول من خلالها أن يبين متى يرد كل اقتران في السياق القرآني.

ولم أطلع – بحدود علمي– على جهد مستقل تناول هذه الظاهرة بهذا الخصوص، اللهم إلا ما سجل من رسائل جامعية تتناول ظاهرة الاقتران بين الأسماء الحسنى بصفة عامة. وللتدليل على ذلك هناك رسالة جامعية عنوانها: الاقتران الثنائي بين أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم: ألفاظه ودلالاته، تقدم بها سنة 1418 هجرية الباحث فخري الجريسي إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الموصل، وهي رسالة ماجستير في اللغة العربية، عدد أوراقها مائتان وستون ورقة تقريباً، وقد بحثت في الأنساق الصرفية والمواقع النحوية لأسماء الله الحسنى المقترنة، ثم الدلالات المفردة، ثم دلالاتها في حال الاقتران، ونقل أقوال المفسرين في ذلك كله، فتلك الجهود لم تتناول اسماً معيناً تبحث فيه، مما يجعل هذه الدراسة متخصصة في اسم الله العليم من حيث اقترانه بتلك الأسماء الثلاثة.

وستكون هذه الدراسة في ثلاثة مباحث وخاتمة، هي على النحو الآتي:

المبحث الأول: اقتران اسم الله العزيز باسمه العليم في السياق القرآني

المبحث الثاني: اقتران اسم الله الفتاح باسمه العليم في السياق القرآني

المبحث الثالث: اقتران اسم الله الخلاق باسمه العليم في السياق القرآني

الخاتمة: وتعرض أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة

المبحث الأول

اقتران اسم الله العزيز باسمه العليم في السياق القرآني

المطلب الأول: في معنى اسمه العزيز والعليم

عزّ فعل ثلاثي ورد في القرآن الكريم بمشتقاته مائة وعشرين مرّة في مائة وسبع عشرة آية.

والعزيز اسم من أسماء الله الحسنى ورد ذكره في القرآن الكريم مقترناً بغيره من أسماء الله الحسنى في ستّ وثمانين آية. وورد إخباراً عن الله بأنّه "عزيز ذو انتقام" في ثلاث آيات. وورد استفهاماً كما في قوله:" أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ" ([1]) مرّة واحدة. وورد كذلك في آية واحدة وصفاً للقرآن الكريم، كما في قوله: وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ".([2])

ذكر العلماء معاني عديدة لاسم الله العزيز، فقال الغزالي:" هو الخطير الذي يقلّ وجود مثله، وتشتدّ الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز".([3]) لكن، ورود اسم العزيز في السياق القرآني يوحي بمعاني أخرى، تتقاطع أو تتداخل مع بعض هذه المعاني التي ذكرها الغزالي مثل معنى القهر والغلبة، بل إنّ الراغب الأصفهاني وغيره من العلماء قد قصروا اسم العزيز على معنى: الذي يَقهر ولا يُقهر؛ لما أنّ العزّة حالة مانعة من الغلبة، وكذا عند ابن الأثير.([4]) واقتصر الزجّاج على أنّ الأصل فيه الغلبة والشدّة، وبناءً عليه، فالله تعالى هو الغالب كلَّ شيء، فهو العزيز الذي ذلّ لعزته كلُ عزيز.([5]) ولعلّ هذا المعنى هو العمدة في اسمه تعالى "العزيز".

لكن القرطبي رحمه الله ذكر اعتبارات كثيرة لمعنى اسمه العزيز فبلغت عنده ثمانية، فهو الغالب القاهر. والقوي المقتدر. وهو الذي لا مثيل له ولا نظير. وهو الجليل، وهو معنى يدل على شرف الذات. وهو الممتنع الذي لا يرام، وهو معنى يدل على قهر من سواه. وهو المعزّ يرفع من يشاء، وهي صفة فعل تتضمن أن يعزّ من يشاء، ويذل من يشاء. وإذا قيل: إنّه معزّ، فيدلّ على عبادة العابدين له رجاء رضوانه، وخوف عقابه. وإذا قيل بمعنى: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ([6]) فيدل على كرامته سبحانه لأوليائه وأهل طاعته، فهذه ثمانية معاني.([7]) وبين هذه المعاني التي ذكرها القرطبي رحمه الله تداخل بيّن، وترادف واضح، فالغالب القاهر –مثلاً– هو نفسه الممتنع الذي لا يرام، ويرجع معظم ما ذكره إلى المعنى المشتهر عند العلماء.

وعرفه السنوسي بقوله: "هو القاهر لجميع الممكنات فعلاً وتركا".([8]) وهو أقرب إلى التعريفات الكلامية.

([1]) [الزمر:37]

([2]) [فصلت:41]

([3]) الغزالي. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، (ص73). ومعنى الخطير في كلام الغزالي النفيس.

([4]) انظر: الراغب الأصفهاني. مفردات القرآن، (ص 333). والمبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، (ج 3/ 456).

([5]) انظر: الزجاج. تفسير أسماء الله الحسنى، (ص 33-34).

([6]) [التوبة:١٢٨]

([7]) انظر: القرطبي. الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته.(ص 183-184).

([8]) السنوسي، الأسماء الحسنى،(ص 30).

ونخلص من هذا إلى أنّ العزيز من أسماء الله تعالى الحسنى هو: الذي يَقهر ولا يُقهر، ويَغلب ولا يُغلب في قدرته ولا قوّته، ولا في علمه، ولا في كلامه، ولا في تشريعاته وأحكامه، وبعبارة جامعة: لا يُغلب في قول، فقوله عزيز، ولا يُغلب في فعل، ففعله عزيز لا يجاريه أحد، ولا يتأبّى عليه شيء. ولا يكون كذلك إلا إذا كان قوياً قاهراً مقتدراً، ولأنّه كذلك فهو لا مثيل له ولا نظير. ولقهره يعزّ من يشاء، ويذل من يشاء بحسب إرادته هو، وحكمته هو جلّ جلاله. وجلّ المعاني التي ذكرها العلماء تندرج تحت هذا المعنى.

والعليم والعالم اسمان من أسماء الله الحسنى، وهما مشتقان من العلم، والعلم هو إدراك الشيء على ما هو به.([9]) وذكر العلماء في معنى "عليم" أقوالاً متقاربة، فالخطابي يرى أنّ "العليم هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق، وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم"([10]) وابن الأثير يرى:" أنّه العالم المُحيطُ عِلْمُه بجميع الأشْياء ظاهِرِها وباطِنِها دَقِيقِها وجَلِيلِها على أتَمّ الإمْكان.([11]) وذكر الزجاج أنّ العليم والعالم بمعنى واحد، إلا أنّ "عليم" فيه صفة زائدة على ما في "العالم".([12]) قال ابن حجر:" هذا بالنظر إلى أصل المعنى، وإلا فصيغة فعيل من صيغ المبالغة فمعناها زائد على معنى الفاعل. وقد ترد صيغة فعيل بمعنى الصفة المشبهة، وفيها أيضاً زيادة لدلالتها على الثبوت بخلاف مجرد الفاعل، فإنه يدل على الحدوث".([13]) كذلك، فإنّ اسمه "العالم" لم يأت في القرآن إلا مضافاً بخلاف اسمه العليم، فالعليم من أسماء الله الحسنى هو المحيط علمه بكل شيء قليل أو كثير، ظاهر أو باطن، إحاطة دقيقة مفصّلة مطابقة لواقع ذلك الشيء، أو ماضيه أو مستقبله داخل نطاق الزمان أو خارجه.

المطلب الثاني: وروده في القرآن الكريم:

ورد الاقتران الثنائي بين اسمه تعالى العزيز واسمه العليم في ستة مواضع من القرآن الكريم كلها مكية، وهذا يلبي ما تتطلبه المرحلة المكية من تأسيس العقيدة بالتعريف بأسماء الله الحسنى، فوصف الله بأنّه "عزيز" في وقت أهلكت الأنفة والكبرياء كثيراً من الناس يفيد أنّ الله هو العزيز الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو القادر المقتدر، وهو القاهر الذي لا يُغلب، فقوله وما تضمنه من أمر ونهي وتشريع وحكم وقصص وأمثال، وترغيب وترهيب ...، لا يجاري مثله الإنس والجنّ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وكذلك أمره وفعله، فالعزّة صفة ذات الله تعالى، وصفة كلامه سبحانه، فقد أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"([14])

والعزّة – كذلك– صفة فعل الله تعالى فقد خلق فصوّر، وأحكم فأبدع، أما الذين من دونه فلا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، قال سبحانه: يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ"([15])

وتلك الاقترانات كلها تقدّم فيها اسمه تعالى العزيز على اسمه العليم. والاسمان كلاهما دخلت عليهما "ال" التعريف. وقد وردت هذه الاقترانات في سياقين متصلين بذكر كتابين عظيمين، عليهما مدار حياة الإنسان، هما:

([9]) الجرجاني. التعاريف، (ص 66).

([10]) الخطابي. شأن الدعاء،(ص 57).

([11]) ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر، (ج 3/ 560).

([12]) انظر: الزجاج. تفسير أسماء الله الحسنى، (ص 39–40).

([13]) ابن حجر العسقلاني. فتح الباري شرح صحيح البخاري(ج 8/ 155).

([14]) [فصلت:41–42]

([15]) [الحج:73–74]

– كتاب الوحي – وهو كلام الله– والإشادة به بوصفه حكم الله وشريعته بين البشر، ومنهج الحياة الذي يهدي للتي هي أقوم، والهادي والموجّه لكل ما يقوم به الإنسان من نشاط فكري وعلمي وعملي.

– وكتاب الكون – فعل الله– وبدائع صنعه تعالى فيه بوصفه الدالّ على وحدانية الله المتفرّد بالخلق والأمر، وهذا تفصيل لذلك:

أولا: ذكر كتاب الوحي والإشادة به

ورد الاقتران بين اسميه العزيز والعليم في آية واحدة جمعت ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى، كما في قوله تعالى: "حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ"([16])، فاجتماع هذه الأسماء الثلاثة يوحي بمدلولات عظيمة مرتبطة بتنزيل هذا الكتاب، فاسم "الله" الأعظم هو الاسم الجامع لكل أسماء الجلال وصفات الكمال من معاني الأسماء الحسنى، فهو الاسم الأعظم للجلال والكمال، وارتباطه بتنزيل الكتاب يوحي بأنّ هذا الكتاب قد حاز الكمال كله، والجلال كله، والعظمة كلها. فإذا أضيف اسمه العزيز دلّ ذلك على أنّ هذا التنزيل لا يصل البشر إلى محاكاته أو مجاراته في شيء من حقائقه وهداياته، وحِكَمِهِ وأحكامِه، ودلائله وبيّناته، فهم عاجزون عن ذلك كلّ العجز، تقاصرت هممهم على مرّ العصور والقرون أن يأتوا بمثله. وإذا أضيف وصف العلم مقترناً بتنزيل هذا الكتاب دلّ ذلك على أنّ تنزيل الكتاب مؤسس على علم الله المطلق بما هو أهدى وأقوم لحياة الناس، فهو العليم بما يحتاجونه من مقومات السعادة والفلاح في دنياهم وأخراهم. وهو العليم بما يصلحهم وما يفسدهم، وما ينفعهم وما يضرهم، وما يقويهم وما يضعفهم من أسباب السعادة والشقاء، والهداية والضلال.

وفي بيان سرّ هذا الاقتران يقول الرازي:" إنّ هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق، الغني المطلق، العالم المطلق، ومن كان كذلك كان عالماً بوجوه المصالح والمفاسد، وكان عالماً بكونه غنياً عن جرّ المصالح ودفع المفاسد، ومن كان كذلك كان رحيماً جواداً، وكانت أفعاله حكمة وصواباً منزّهة عن القبيح والباطل، فكأنه سبحانه إنّما ذكر عقيب قوله: "تَنزِيلَ" هذه الأسماء الثلاثة لكونها دالة على أنّ أفعاله سبحانه حكمة وصواب، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقاً وصواباً".([17]) وهو ما يشعر بالتحدّي والإعجاز، فهل هناك من يستطيع أن يجاريه أو يباريه في حكمه وأحكامه، أو توجيهاته وهداياته، أو حقائقه وبيّناته، أومعارفه وعلومه فضلاً عن بلاغته وبيانه ؟

وأكد البيضاوي هذا المعنى بقوله:" لعلّ تخصيص الوصفين –العزّة والعلم– لما في القرآن من الإعجاز والحكم الدالّ على القدرة الكاملة والحكمة البالغة".([18]) ووضح ابن عجيبة في البحر المديد هذا المعنى بقوله: التعرُّض لوصفي العزة والعلم للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب؛ لظهوره عزّه وعزّ مَن تمسّك به، ولاشتماله على علوم الأولين والآخرين.([19]) وهذا ما لا يستطيعه البشر، فهو فوق طاقاتهم وإمكاناتهم العقلية والعلمية والمعرفية، لذلك كان هذا القرآن لا نظير له ولا مثيل لاعتبارات لا يحصيها العدّ، فإذا تمّ النظر إلى تنظيم شؤون حياة الناس فيما يحتاجونه من تشريعات ونظم على أساس من العدل والمساواة، فلن تجد للقرآن مثيلاً ولا نظيراً، فهذه واحدة فقط من حكم هذا القرآن العظيم. وإذا احتجت إلى بيان طريق السعادة في الحياتين الدنيا

([16]) [غافر:1]
([17]) الرازي، مفاتيح الغيب،(ج 24/27).
([18]) البيضاوي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (ج 5/ 82).
([19]) ابن عجيبة. البحر المديد، (ج 6/ 432).

والآخرة، فإنّ هذا القرآن هو الكفيل ببيان ذلك أوضح بيان وأكمله وأتمّه. فماذا يريدون بعد ذلك؟ قال تعالى: "أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"([20]) وهكذا، شأن حقائق القرآن وهداياته في كل مجال من مجالات الحياة وشؤونها.

ويظهر كذلك، أنّ هذا الارتباط بين تنزيل الكتاب وهذه الأسماء الحسنى يؤكد سطوع شمس القرآن على ممرّ الدهور والأزمان، بحيث لا يباريه أو يوازيه كتاب، ولن تناله يد التحريف والتبديل لعجزها وضعفها عن أن تحاكيه في قليل أو كثير، أو فتيل أو قطمير، فهو ممتنع على العالمين الإتيان بمثله. وهو الفريد في فصاحته وبلاغته، وأسلوبه وبيانه، وحقائقه وعلومه.

كذلك، ورد الاقتران بين هذين الاسمين الجليلين: العليم والعزيز في سياق يشيد بذكر هذا القرآن، وأنّ حكمه هو الحكم الذي لا تناله ولا تصل إليه العقول بنظر أو اجتهاد، فهو القول الفصل، وهو الحكم العدل، وهو الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، تنزيل العزيز العليم، قال تعالى:" إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ"([21]) والآية واردة في سياق الحديث عن القرآن، فقد سبقها قوله تعالى:"إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ"([22]) فقضاء الله بالحكم هو المذكور في الكتاب العزيز، قال الرازي:" المراد أنّ القرآن وإن كان يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، لكن لا تكن أنت في قيدهم، فإنّ ربك هو الذي يقضي بينهم، أي: بين المصيب والمخطئ منهم، وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال: "وَهُوَ العزيز"، أي: القادر الذي لا يمنع، العليم بما يحكم فلا يكون إلا الحق".([23])

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:" إنّ هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل" وذلك أنّ أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزابا يطعن بعضهم على بعض، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه فلو أخذوا به لسلموا، إنّ ربك يقضي بينهم يعني بين بني إسرائيل بحكمه"([24]) الذي أنزله في القرآن في شأن كلّ ما اختلفوا فيه.

ويظهر أنّ هذا القضاء بحكم الله قد تمّ تفصيله بجلاء في القرآن الكريم، قال السعدي:" وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل فقصّه هذا القرآن قصّاً زال به الإشكال، وبين به الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح وإزالة كلّ خلاف، وفصل كلّ مشكل كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بين أنّ نفعه ونوره وهداه مختصّ بالمؤمنين"([25]) وعلى هذا، فالآية لا تتحدّث عن فصل القضاء يوم القيامة كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، ولكنه يتحدّث عن حسم قضايا خلافية ماضية وحاضرة ومستقبلية في كل ما يتصل بالنبوّة والإنسان والكون والحياة مما بينته آيات الكتاب العزيز.

ونخلص من هذا إلى القول: إنّ اقتران هذين الاسمين يرد حينما تتمّ الإشادة بكتاب الله وحكمه، وهو مما لا يمكن للعقل البشري الوصول إليه باجتهاد ورأي، أو فكر ونظر. وقد تنزّل بعلم الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض؛ فقد قهر الله تعالى بكلامه وأحكامه عقول الثقلين من الإنس والجانّ أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. ومن معاني العزّة فيه أنّه لن يقوى أحد يوماً على الإتيان بمثله، ولو تظاهر بعضهم لبعض، ونصر بعضهم بعضاً، بل إنّ القرآن نفسه قد حمل هذه الخاصية، خاصية العزّة التي تقهر كل من تكبر، وطغى في الأرض وتجبر، قال تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ

([20]) [العنكبوت:51]
([21]) [النمل: 78]
([22]) [النمل :76-77]
([23]) الرازي. مفاتيح الغيب، (ج 24/ 185).
([24]) ابن الجوزي. زاد المسير في علم التفسير، (ج 6/ 189).
([25]) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص 609).

وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"([26]) فمهما سعى هؤلاء إلى النيل من القرآن فإنّ سعيهم سيؤول إلى فشل وخيبة، وتقف القرون الماضية شاهدة على أنّ القرآن يَقهر ولا يُقهر، ويَغلب ولا يُغلب، قال تعالى:" قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا"([27]) فهل بعد أن ارتدت كل المحاولات السابقة خاسئة حسيرة، منكسرة ذليلة هل هناك بعد ذلك من محاولات يائسة تتوهّم النيل من القرآن الكريم! فالعزّة هنا صفة كتاب الله تعالى، وهي صفة لا يتصف بها كتاب آخر، فالكتب الأخرى يعتريها النقص والخلل والعيب، فهي ذليلة منكسرة إذا ما تعرضت لنقد العقول وتمحيصها وتحقيقها. فضلاً عن أنّ كتب البشر يمكن محاكاتها ومضاهاتها، والإتيان بمثلها.

ثانياً: ذكر كتاب الكون وتقدير ما فيه:

السياق الثاني الذي ورد فيه هذا الاقتران هو سياق الحديث عن الكون الذي هو مظهر من مظاهر فعل الله العزيز في الوجود كله، وكما كان كلامه سبحانه في القرآن معجزاً، كان كلامه عزيزاً قاهراً غالباً، كذلك فعل الله سبحانه لا يقدر على مجاراته أو محاكاته أحد، وبيان ذلك:

ورد هذا الاقتران بين الاسمين الجليلين: العزيز والعليم في سياق الحديث عن خلق الكون وتقدير ما فيه، فتجلت في كل مظهر من مظاهر هذا الخلق آثار إبداع القدرة الإلهية، وأول هذه الآيات التي وقع فيها الاقتران هنا هي الإقرار بأنّ الله سبحانه هو خالق السموات والأرض، قال تعالى:" وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ"([28]) قال ابن عجيبة في البحر المديد:" واختار هذين الوصفين – العزّة والعلم– للإيذان بانفراده بالإبداع والاختراع والتدبير؛ لأنّ العزّة تُؤذن بالغلبة والاقتدار، والعلم يؤذن بالتدبُّر والاختيار، وليُرتب عليه ما يناسبه من الأوصاف."([29]) وبما أنّ الله سبحانه مختصّ بالخلق فقد قهر العقول وحيّر الألباب بهذا الخلق، من حيث طبيعة هذا الخلق، وماهيته، والنظام الذي يحكمه ويسير عليه. فهو خلق ارتكز إلى العزّة بعجز الخلائق عن الوصول إلى منتهاه، فهل يستطيع البشر معرفة مكونات المادة التي تشكل الطاقة الشمسية, والتي مضى على اشتعالها ملايين السنين، تلك الطاقة التي لا تنفد إلا بقدر الله تعالى؟ أم هل يستطيعون مجاراة خلق الأرض تلك الكرة الضخمة السابحة في فضاء الكون!! فالخلق صفة لا يمكن أن يصل إليها البشر أبداً. وهو خلق ارتكز على العلم في نظامه فلا تجد فيه عوجاً ولا أمتاً، وما من حجر وضع فوق حجر في هذا الكون إلا عن علم وحكمة، فارجع البصر هل ترى من فطور؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير!

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ السموات جميعاً والأرضين جميعاً خاضعة مقهورة لأمر الله تعالى، لا تخرج عما وضعها عليه قيد أنملة، فهو العزيز القاهر لهذا الخلق لا يعجزه سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء. قال تعالى:" ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ".([30])

وقد تأكد ورود هذا الاقتران بين الاسمين الجليلين في سياق الحديث عن الكون في ثلاث آيات كانت فاصلتها "ذلك تقدير العزيز العليم".

([26]) [فصلت:41-42]

([27]) [الفرقان:6]

([28])[الزخرف: 9]

([29]) ابن عجيبة. البحر المديد، (ج 7/ 6).

([30]) [فصلت:11]

ففي سورة الأنعام ورد قوله تعالى: فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ".([31]) إنّ هذا التقدير لحركة الأرض وما ينجم عنه من ليل أو نهار، بل إنّ هذه الحركة المقدرة للكواكب قد أظهرت اقتدار الله تعالى على تدبير نظام الكون بعلم مطلق ليحقق ما فيه مصلحة الإنسان وما فيه نفعه وصلاح حياته، وليظهر وحدانية الله في التصرّف بالملك كيف يشاء, قال أبو حيان:"ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" أي: ذلك الجعل، أو ذلك الفلق والجعل، أو ذلك إشارة إلى جميع الأخبار من قوله: "فَالِقُ الْحَبّ" إلى آخرها تقدير العزيز الغالب الذي كلّ شيء من هذه في تسخيره وقهره. العليم الذي لا يعزب عنه شيء من هذه الأحوال ولا من غيرها. وفي جعل ذلك كله بتقدير دلالة على أنّه هو المختص الفاعل المختار لا أن ذلك فيها بالطبع ولا بالخاصية".([32])

واستحسن ابن جزيء مجيء الاقتران على هذا النحو، فقال:" ما أحسن ذكر هذين الاسمين هنا؛ لأنّ العزيز يقلب كل شيء ويقهره، وهو قد قهر الشمس والقمر وسخرهما كيف شاء. والعليم لما في تقدير الشمس والقمر والليل والنهار من العلوم والحكمة العظيمة وإتقان الصنعة".([33])

وذكر الشعراوي أنّ معنى العزّة هنا القهر بالتسخير والانقياد، قال:" وكلمة "العزيز" تفيد الغلبة والقهر فلا يستطيع أحد أن يعلو عليه؛ فهذه الأجرام التي تراها أقوى منك ولا تتداولها يدك، إنّها تؤدي لك مهمة بدون أن تقرب منها؛ فأنت لا تقترب من الشمس لتضبطها مثلما تفعل في الساعة التي اخترعها إنسان مثلك، والشمس لها قوة قد أمدّها الله خالقها بها، ولا شيء في صنعته ولا في خلقه يتأبّى عليه".([34])

ومن قبل، وضّح الرازي معنى التقدير الذي لا تطاله عقول البشر بالوقوف على أسرار ذلك التقدير، فقال:" ختم الآية بقوله :"ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" والعزيز إشارة إلى كمال قدرته، والعليم إشارة إلى كمال علمه، ومعناه: أنّ تقدير أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة وهيئاتها المحدودة، وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة في البطء والسرعة لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات، وعلم نافذ في جميع المعلومات من الكليات والجزئيات، وذلك تصريح بأنّ حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة، وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار. والله أعلم".([35]) وهذا دليل واضح، وبرهان ساطع على أنّ وصفي العزّة والعلم اللذين تجلّيا في تقدير هذا الخلق يقفان دليلاً واضحاً على وحدانية الله تعالى، لأنّه لا يقوى على ذلك الخلق أو ذلك التقدير أحد من الخلائق.

كذلك الحال في قوله تعالى في سورة يس: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ"([36]) قال ابن عاشور:" وذكر صفتي {الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} لمناسبة معناهما للتعلق بنظام سير الكواكب، فالعزة تناسب تسخير هذا الكوكب العظيم، والعلم يناسب النظام البديع الدقيق".([37]) أو أنّ العزّة تناسب انقياد كل شيء لأمره فلا يتأبّى عليه من ذلك شيء، والعلم يتناسب مع ذلك التقدير المحكم في الخلق، فالشمس تدور في مسار منتظم لا تخرج عنه، وكذا شأن الأرض والقمر وسائر الكواكب، وثبات المسافات والأبعاد بين هذه الكواكب كان في غاية الانتظام والإحكام، وهو مبني على علم مطلق لا حدود له.

([31]) [الأنعام : 96]
([32]) أبو حيان. البحر المحيط، (ج 4/ 191).
([33]) ابن جزيء الكلبي. التسهيل لعلوم التنزيل، (ج 1/ 280).
([34]) الشعراوي. خواطري حول القرآن. (ج 6/ 3813).
([35]) الرازي. مفاتيح الغيب، (ج 13/ 82).
([36]) [يس:38]
([37]) ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، (ج 23/ 21).

أما في سورة فصلت فقد ورد الاقتران بقوله تعالى :"ذلك تقدير العزيز العليم" لشيء آخر، هو النظام المحكم لخلق السموات وتدبير أمرها وتزيينها وحفظها، قال تعالى: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ"([38]) قال الرازي: "اعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل، قال: "ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" والعزيز إشارة إلى كمال القدرة، والعليم إشارة إلى كمال العلم، وما أحسن هذه الخاتمة، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط".([39])

والتقدير كما ذكر ابن عاشور وضع الشيء على مقدار معين".([40])

وإجمالاً، ورد ذكر "تقدير العزيز العليم" لعدّة أشياء في سورة الأنعام، هي: أنه سبحانه فالق الحب والنوى، وأنه يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحي، وأنّه فالق الإصباح، وجعل الليل سكنا، وجعل الشمس والقمر حسباناً. أما التقدير في سورة يس فقد وقع في تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس لمستقر لها، وأما في سورة فصلت فالتقدير أنه جعل في الأرض الرواسي الشامخات، وقدّر فيها الأقوات والأرزاق، وأنفذ أمره الجليل في الأرض والسموات، فقهرتا لأمره، واستجابتا لسلطانه، وقضى السموات السبع في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها، وزيّن السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً. لقد توجهت القدرة الإلهية إلى كل هذه الأمور العظام بالخلق والإيجاد والتقدير حتى تكون فاعلة مهيّأة لاستقبال أعظم مخلوق في الوجود، وهو الإنسان. وتراها مستجيبة طائعة غير ممتنعة، ولا يحق لها أن تمتنع عن تنفيذ إرادة العزيز العليم. فكيف يمتنع الإنسان عن توحيد الله وطاعته، والاستجابة له سبحانه فيما يأمره وينهاه مما فيه نفعه وصلاحه في الحياة الدنيا والدار الآخرة!

لقد وقع التقدير الإلهي فيها مبنياً على علم مطلق لنفع الإنسان ومصلحته ونظام حياته. وجعل هذا التقدير نظاماً بديعاً معجزاً، ليكون دليلاً قاهراً على وحدانية الله تعالى، فلا يشكك في وضوح هذا الدليل وسطوعه إلا أعمى القلب، أعمى الفؤاد، أعمى البصيرة.

لقد تجلى في هذا الخلق الإبداع الأعظم، والنظام الأكمل، والانسجام الأفضل بين مفردات الوجود كله، فما ترى في هذا الخلق عوجا ولا أمتا، وقد تحدّى الله الثقلين بكتاب الكون المنظور كما تحدّاهم بكتاب الوحي المسطور، فقال: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ"([41]) وظهر التحدّي هنا بأقل كلفة وهو أن يجد الإنسان في هذا الكتاب المنظور عيباً أو مطعناً، ولم يطلب منه الإتيان بمثله! وإذا كان سبحانه قد أيأس الثقلين أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال:" قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا"([42]) فهو كذلك قد أيأس الثقلين بقوله: " يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ"،أي: ذليل منكسر!

إنّ هاتين الصفتين المرتبطتين بأعظم كتابين في الوجود: كتاب الوحي وكتاب الكون يتقرر في ضوئهما قاعدة مهمة في فهم القرآن الكريم وتفسيره هي: أنّ فهم أحد الكتابين بمعزل عن الآخر خلل في المنهج، وخلل في التفكير؛ ذلك أنّ إدراك صفة العزّة لا تتجلى من ناحية اللغة فحسب، بل من حيث المدلول الكوني لهذه الصفة حين تظهر في عجز البشر عن إيجاد علاج لفيروس معين لا يرى بالعين المجرد في قطرة دم، فكم حصد الإيدز من أرواح، وكم حصد السرطان من نفوس! أليس فهم اسمه تعالى "العزيز" مدخلاً إلى الإيمان بالله الواحد الأحد؟

([38]) [فصلت:12]

([39]) الرازي. مفاتيح الغيب، (ج 27/ 95).

([40]) انظر: ابن عاشور. التحرير والتنوير، (ج 24/ 252).

([41]) [الملك : 1-4]

[42] [الإسراء: 88]

المبحث الثاني

اقتران اسم الله الفتاح باسمه العليم في السياق القرآني

المطلب الأول: في معنى اسمه الفتاح:

ورد الفعل الثلاثي (فتح) في القرآن الكريم بمشتقاته سبعاً وثلاثين مرّة في ثلاث وثلاثين آية مكية ومدنية، وأغلب ما ورد من آيات كان مكياً.

واستقرأ الفيروزأبادي معاني مفردة "فتح" في تلك الآيات، وتقرّر عنده أنّها وردت في القرآن على ثلاثة وعشرين معنى، هي: القضاء والحكم، وإرسال الرحمة، والنصرة، وإزالة الإغلاق. ثم هذا المعنى – إزالة الإغلاق– يأتي على تسعة عشر وجهاً، هي: فتح أبواب النصرة، وفتح أبواب الغنيمة والظفر، وفتح خزائن القدرة، وفتح أبواب النعمة، وفتح أبواب السماء، وفتح مغاليق الخصومات، وفتح أبواب البركة، وفتح أبواب القتل والإهلاك، وفتح باب البضاعة، وفتح أبواب السماء على طريق الإعجاز، وفتح سدّ يأجوج ومأجوج يوم القيامة، وفتح أبواب العذاب، وفتح بيوت الأصدقاء وذوي القربى، وفتح باب الدعاء رجاء الإجابة، وفتح أبواب الجنة، وفتح أبواب جهنم، وفتح أبواب الثواب والكرامة، وفتح أبواب الطوفان، وفتح البلاد على أيدي أهل الإسلام".([43]) ويلحظ في ما ذكره الفيروزأبادي من معنى "الفتح" المتعلق بإزالة الإغلاق التداخل الكبير بين هذه المعاني لأصل استخدام هذه المفردة في آيات القرآن الكريم، وكأنّها معاني متنافرة أو متباعدة، وبالنظر فيما ذكره يلحظ أنّ الفتح بمعنى إزالة الإغلاق يتعلق بالمعاني الحسية المادية والعقلية المعنوية.

والفتاح اسم من أسماء الله الحسنى، تقاربت في بيان معناه تعريفات العلماء وأقوالهم، فذكر الزجاجي أنّ الفتاح والفاتح: الحاكم، مستشهداً بقوله تعالى: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ".([44]) أي: احكم بيننا، وأصله من فتح الباب بعد إغلاقه، كأنّ الحاكم إذا حكم بينهم فقد فتح الباب إلى الحق وبينه.([45])

وذكر الزجاج أنّ معنى فتح الله بين الحق والباطل أنّه أوضح الحق وبينه، وأدحض الباطل وأبطله، فهو الفتاح.([46]) ويلحظ من هذين المعنيين المتقاربين أنّ اسمه تعالى الفتاح يختص بالحكم ببيان الحقّ وإبطال الباطل، في خضم الصراع والمواجهة بينهما. وهو ما أكده الطبري من أن أصل الفتح في كلام العرب: النصر والقضاء والحكم.([47])

وذكر ابن منظور أنّ "الفتَّاح: هو الحاكِمُ، ونقل عن الأَزهري أنّ: الفَتَّاح في صفة الله تعالى: الحاكم، قال: وأَهل اليمن يقولون للقاضي: الفَتَّاحُ، ويقول أَحدهم لصاحبه: تعال حتى أُفاتحكَ إِلى الفَتَّاح، ويقول: افْتَحْ بيننا، أَي: احكم، وفي التنزيل: "وهو الفَتَّاحُ العليم". وفاتَحه مُفاتحة وفِتاحاً: حاكمه.([48])

([43]) الفيروزأبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز،(ج 4/ 161-165).

([44]) [الأعراف : 89]

([45]) الزجاجي. اشتقاق أسماء الله الحسنى،(ص 189).

([46]) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى،(ص 39).

([47]) الطبري. جامع البيان.(ج 2/ 254).

([48]) ابن منظور، لسان العرب، (ج 2/ 536).

وقال السعدي: هو الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية وأحكامه القدرية.([49]) وهذا معنى أكثر خصوصية، فالفتاح على هذا متعلق بالحكم بين العباد! بناءً على الآية الواردة في سورة سبأ وهي قوله تعالى: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ"([50])

وثمة معنى آخر "للفتاح" قد يكون أعمّ وأشمل، وهو ما ذكره الغزالي بقوله:" إنّه الذي ينفتح بعنايته كل منغلق، وبهدايته ينكشف كلّ مشكل، فتارة يفتح الممالك لأنبيائه ويخرجها من أيدي أعدائه، ويقول: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينً"([51])، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه وجمال كبريائه، يقول: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم"([52]) ومن بيده مفاتح الغيب ومفاتيح الرزق فبالحري أن يكون فتّاحاً".([53]) وهذا المعنى ملاحظ من جملة آيات قرآنية تجعل فعل الفتح مسنداً إلى الله تعالى. فقد وصف سبحانه بأنه خير الفاتحين كما في قوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ([54]) وقوله: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"([55]) وقوله: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ" ([56])

وكون اسمه تعالى "الفتاح" قد ورد في سياق الحجاج بين المسلمين وغيرهم، وهي قضية تتطلب حكماً وفصلاً بين الفريقين، ولا يفصل فيها ولا يقضي ويحكم إلا الله سبحانه، فبالأحرى أن يكون فتاحاً، ولذلك وصف يوم القيامة بأنه يوم الفتح، أي: الفصل والحكم والقضاء بين الخلائق، كما في قوله: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ".([57]) قال ابن كثير رحمه الله: المراد بالفتح: القضاء والفصل.([58]) واتخذ السنوسي وجهة أخرى حين عرّف الفتاح بقوله:" هو المتفضّل بإظهار الخير والسعة على إثر ضيق وانغلاق الباب للأرواح والأشباح في الأمور الدنيوية والأخروية.([59])

ونخلص من هذا إلى أنّ الفتاح من أسماء الله الحسنى هو الذي يقضي ويحكم في شؤون الخلائق بما يقتضي فتح مغاليق الأمور المادية والمعنوية لإحقاق حقّ ونصره، أو لخذلان باطل وكسره. وفتح القلوب للسموّ والرقي في عالم الملكوت مما يدخل ضمن إحقاق الحق ونصره وتأييده.

المطلب الثاني: وروده في القرآن الكريم:

([49]) السعدي. تفسير أسماء الله الحسنى، مجلة الجامعة الإسلامية، (ع 112/ 1421هـ، ص 67).
([50]) [سبأ : 26]
([51]) [الفتح : 1]
([52]) [فاطر : 2]
([53]) الغزالي. المقصد الأسنى،(ص 86).
([54]) [الأعراف : 89]
([55]) [البقرة: 76]
([56]) [الأنعام : 44]
([57]) [السجدة : 28-29]
([58]) ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، (ج 3/ 561).
([59]) السنوسي، الأسماء الحسنى، (ص35).

اقترن اسمه تعالى العليم باسمه تعالى الفتاح في القرآن كلّه في آية مكية واحدة فقط، هي قوله تعالى قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ([60]) قال البقاعي في معنى هذا الاقتران –الفتاح العليم– أي: البليغ الفتح لما انغلق، فلم يقدر أحد على فتحه. "العليم" أي: البالغ العلم بكل دقيق وجليل مما يمكن فيه الحكومات، فهو القدير على فصل جميع الخصومات.([61])

وفي اقتران الفتاح بالعليم إشارة إلى أنّ حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه كما ذكر الرازي.([62]) وللدلالة –كذلك– على أنّ حكمه عدْلٌ مَحض؛ لأنّه عليم لا تحفّ بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز واتباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب".([63])
لقد وردت الآية في سياق الحديث عن ثلاث قضايا:

الأولى: قضية الرزق، انطلق الحديث عنها من سؤال استفهام تقريري يتعلق بمن يرزق الخلق، وهي قضية الأصل فيها أن تكون بدهية واضحة. ومع الإقرار بأنّ الله تعالى وحده هو الرازق، بل لا يقوى عليه أحد إلا هو. والرزق فتح من الله تعالى وهبة وعطاء، وكل ما يملكه البشر من وسائل تحصيل الرزق لا يعدو كونه سبباً. ومع الإقرار بذلك كله، فقدّ يدّعي البشر القدرة على الرزق: تحصيله أو قطعه، ويظنون أنهم يملكون شيئاً من منحه أو منعه، أو يعيدونه إلى أسباب ظاهرة مادية أو معنوية – كما هو الغالب – وكما ادّعى قارون حين أخبر القرآن على لسانه: قال إنما أوتيته على علم عندي" ([64]) وعلى هذا، فالأنسب أن تختتم الفاصلة بهذين الاسمين الجليلين، فالفتاح هو الذي يحكم فيبسط الرزق لمن يشاء، ويقدر على من يشاء، بناءً على علمه المطلق بأحوال الخلق ما يصلحهم وما يصلح لهم، وما ينفعهم أو يفسدهم، كما قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا"([65]) وكما قال: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ"([66]) وكل شيء عنده سبحانه بمقدار بما يقتضيه علمه تعالى بمصالح الخلق.

الثانية: التنازع في أيّ الفريقين على هدى، وأيّهما في ضلال مبين! فزعم الكافرون وغلب على ظنّهم لاعتبارات مادية أنّ ما هم عليه هو الأفضل، كما قال: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيم".([67]) فقضية الهداية قضية يتجادل ويتنازع فيها الفريقان، وحين يختم الفاصلة باسمه الفتاح الذي هو الحاكم والقاضي، وباسمه العليم يظهر بجلاء أنّ القضاء والفصل مترتب على العلم، فـ "العليم" أنسب الأسماء اقتراناً باسمه الفتاح. وفي سرّ ورود القضية

([60]) [سبأ : 24–26]
([61]) البقاعي. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.(ج 6/ 179).
([62]) الرازي. مفاتيح الغيب، (ج 25/ 223).
([63]) ابن عاشور. التحرير والتنوير، (ج 22/ 195).
([64]) [القصص : 78]
([65]) [الإسراء : 30]
([66]) [الشورى : 27]
([67]) [الأحقاف : 11]

بهذه الصورة قال ابن عاشور:" وهذا اللون من الكلام يسمى الكلام المنصِف وهو أن لا يترك المُجادل لخصمه موجب تغيظ واحتداد في الجدال، ويسمى في علم المناظرة إرخاءَ العنان للمناظِر، ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة."([68])

الثالثة: فردية التبعية والمسؤولية، وهي قضية أخرى تتطلب فصل القضاء والحكم فيها، وهي ناشئة ومتصلة بالتي قبلها، بمعنى إنّ من يعمل على وفق طريق الهداية لا تسألونه عن عمله لوضوحه، فهو مسؤول عن عمله. ومن يعمل على وفق طريق الغواية لا نسأله عن عمله؛ لوضوحه كذلك، ومسؤوليته على نفسه، فالحق بيّن والباطل بيّن، كما الحلال بيّن والحرام بيّن. والذي يحكم في هذه الأعمال قبولاً أو ردّا، حقاً أو باطلاً، ثواباً أو عقاباً هو الله سبحانه الفتاح العليم، فكل مسؤول عما اكتسبه.

مما سبق يتبين أنّ الاقتران الثنائي بين هذين الاسمين الجليلين "الفتاح العليم" هو الضامن لبقاء الحق واضحاً أبلجاً لا لبس فيه ولا غموض. وقد ورد في سياق واحد، هو ذلك الذي يتطلب فصلاً في الحكم والقضاء في قضايا جدلية بين دعاة الحق والهداية ودعاة الباطل والضلالة.

وتقديم الفتاح على العليم لضرورة السياق، فالحكم هو ما تشرئب النفوس إلى معرفته، وتتطلع إلى وجه الحقّ فيه، والتشوّف إلى اتباعه. والحكم والقضاء يتطلبان وصف العلم، لما أنّ الحكم ينبني على علم، فلا يكون الحاكم إلا عليماً، وهو الأوفق لسياق الآية الكريمة.

المبحث الثالث

اقتران اسم الله الخلاّق باسمه العليم في السياق القرآني

المطلب الأول: في معنى اسمه الخلاّق

وردت مادة "خلق" في القرآن الكريم في مائتين وثماني عشرة آية، وشملت صيغاً كثيرة. وأصله من الفعل الثلاثي خلق، يقال: خلق يخلق خلقاً للخالق الحقّ: إذ اخترع وأوجد ما لم يكن موجوداً، ومعنى كون الله خالقاً وخلاقاً أنه مخترع الأعيان ومقدّر الأشياء.([69]) وأصل الخلق في الكلام: التقدير.([70]) فالخالق هو موجد الأشياء ومقدّرها قبل وجودها على غير نظير سبق. والخلاق صيغة مبالغة تعني من يكثر منه فعل الخلق كيف يشاء، متى يشاء.

المطلب الثاني: وروده في القرآن الكريم

ورد اسمه "الخلاّق" معرفاً في موضعين من القرآن الكريم، بينما ورد اسمه "الخالق" معّرفاً مرّة واحدة، وورد على صيغة اسم الفاعل "خالق" مضافاً في خمسة مواطن في القرآن الكريم، وفي موضعين اثنين ورد غير مضاف.

أما اقتران اسمه "الخلاّق" باسمه العليم فقد ورد في آيتين مكيتين في القرآن الكريم تقدّم فيهما اسمه الخلاّق على اسمه العليم، وقد وردتا في سياق واحد هو محاجّة الكافرين وإقامة الحجّة عليهم، وتوضيح ذلك:

([68]) ابن عاشور. التحرير والتنوير، (ج 22/ 192).

([69]) انظر: القرطبي: الأسنى، (ص 330-331).

([70]) الزجاج. تفسير أسماء الله الحسنى، (ص 35). والرازي. مفاتيح الغيب (ج14/ 80).

ورد في الآية الأولى: قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيم ([71]) وقد تقدّمها قوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ"([72]) وقد وردت الآية تعقيباً على قصص السابقين الهالكين الذي كذبوا بدلائل الحق، وكفروا بما جاء به الأنبياء والمرسلون من مقاصد الخلق. وكفار قريش أنموذج دلّ على هذا اللون من الكفر والتكذيب، فعلام يكذب هؤلاء وهم يرون من الآيات الدالة على الوحدانية ما يقيم عليهم الحجة والبرهان؟ أم يحسبون أنّ العبث يسود هذا الخلق؟ كلا! إنّ الله ما خلق هذا الخلق إلا بالحق." أي: خلقاً ملتبساً بالحق، فيتفكر فيه من وفقه الله فيعلم النشأة الآخرة بهذه النشأة الأولى، أو بسبب الحق من إثبات ثوابت الأمور ونفي مزلزلها، لتظهر عظمتنا بإنصاف المظلوم من الظالم، وإثابة الطائع وعقاب العاصي في يوم الفصل، إلى غير ذلك من الحكم".([73]) وهي حقيقة تفتح باباً من أبواب الهداية إلى معرفة الله تعالى، والإيمان بما أنزل في كتابه. والساعة هي الحدث الأهم والأبرز الذي ينتظره الإنسان في حياته لما يترتب على قيامها من تحقيق مقاصد خلق الإنسان. فقضية الخلق مرتبطة بالحق لا تفارقه من حيث دلالتها على وحدانية الخالق سبحانه، وهي من البداهة بحيث لا يشك فيها أو يقف عند ما يترتب عليها عاقل.

وأولى صفة يمكن أن يعرف بها الله سبحانه هو أنّه الخالق، فلا يقوى على خلق شيء مهما كان صغيراً غيره سبحانه. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ"([74]) وهذا الخلق لا يصدر إلا عن علم، فالله عليم بما يخلق ومن يخلق. لكن مجيء صيغة المبالغة على هذا النحو تشير إلى كثرة الخلق وتنوّعه تنوّعاً يعجز عنه الوصف والعدّ والإحصاء، وهذا أدعى إلى الإيمان بالله تعالى، فمن يخلق على غير مثال سبق، لا يعجزه قيام الساعة وبعث الخلق مرّة أخرى للحساب والجزاء.

وتظهر علاقة الآية بما سبقها من حيث إنّها توجّه المخاطب الأول بالوحي صلى الله عليه وسلم إلى الصفح عن أولئك الذين يجادلون بالباطل، ويعرضون عن الإيمان، فمرجعهم إلى الله تعالى، هو الذي يجمعهم يوم القيامة ليقضي بينهم بحكمه، وما الساعة إلا مؤشر على بداية ذلك اليوم العظيم. قال الزمخشري في معنى الفاصلة:" إنّ ربك هو الخلاق "الذي خلقك وخلقهم"، وهو "العليم" بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم، وهو يحكم بينكم. أو إنّ ربك هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم، وقد علم أنّ الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح".([75]) ليتسنى لهم التفكر والتذكر، فيغتنموا تلك الفرصة في إمهالهم، ويتسنى لكل مؤمن التحصن والتقوي بالإيمان، فالصفح سبيل من سبل إظهار الحق وإبراز معالمه في جوّ التسامح والصفح.

ويمكن أن تكون الباء في قوله تعالى: "إلا بالحق" سببية، كما ذكر البقاعي، أي: بسبب إقامة الحق، وإظهار أمرنا في العدل. ولولا أن سلطنا بعض الناس على بعض لم يظهر لهم منا هذه الصفة غاية الظهور، فنحن نعجل من الحق – الذي خلقنا ذلك بسببه على قيام الساعة – ما شئنا من الابتلاء والانتقام كما فعلنا ممّن قصصنا أمرهم، ونؤخر من ذلك ما بقي إلى قيام الساعة التي لا شكّ في مجيئها لتستوفى الحقوق؛ لأنّ ربك هو الخلاّق، أي: الفاعل للخلق مرّة بعد مرّة، لا تنفذ قدرته ولا تهن كلمته، العليم: التام العلم، فهو قادر على ذلك، عالم بوجه الحكمة فيه في وقته وكيفيته، فهو يعيد الخلائق في الساعة كما بدأهم، ويستوفي إذ ذاك جميع الحقوق".([76]) وكأنّ البقاعي يرى أنّ سرّ اقتران الخلاق بالعليم هو أنّ بعثهم للساعة والقيامة وإحياءهم للحساب والعقاب يتطلب ذكر اسمه الخلاق، فلا يحيي الأموات إلا الخلاق، ولا يحاسبهم على أعمالهم إلا العليم الذي لا تخفى عليه خافية.

([71]) [الحجر : 86]

([72]) [الحجر : 85]

([73]) البقاعي. نظم الدرر، (ج 4/ 234).

([74]) [الحج : 73]

([75]) الزمخشري. الكشاف،(ج 2/ 548).

([76]) انظر: البقاعي. نظم الدرر، (ج 4/ 235).

قلت: ولعلّ إيراد اسم "الخلاق" بصيغة المبالغة لتناسب الموقف الذي ورد فيه، فالموقف يشير إلى أنّ الساعة آتية فماذا يترتب على إتيانها؟ بعث لكل الخلائق من الإنس والجنّ .... ثم نشر، ثم حشر، ثم سؤال وحساب، ثم جنة أو نار، وهذا ما يستدعي ورود هذين الاسمين الجليلين. وهو ما تأكد في سياق الآية الأخرى في سورة يس.

وأضاف ابن عاشور وجهاً آخر في وصفه بالخلاق العليم، وهو الإيماء إلى بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بأنّ الله يخلق من أولئك من يعلم أنهم يكونون أولياء للنبي صلى الله عليه وسلم وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية والذين ولدوا.([77]) وهو ملحظ فيه نوع تكلف!

وقد تكرر ذكر الفعل الثلاثي "خَلَقَ" في سورة الحجر –التي ذكر فيها هذا الاقتران– بتصريفات مختلفة ستّ مرات، وهي السورة التي ذكرت خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون، وخلق الجانّ من نار السموم، فكيف خلق سبحانه نوعين عاقلين من الخلق من مواد متضادة، فالصلصال هو الطين إذا يبس وهو طين أسود منتن، ونار السموم هي النار الحارة التي لا دخان فيها،([78]) كذلك ذكر فيها الملائكة، وهي مخلوقة من نور، وكلها مخلوقات عاقلة مكلفة بعبادة الله تعالى، فناسب أن يرد اسمه الخلاق، والله تعالى أعلم.

أما الآية الثانية التي اقترن فيها هذا الاسمان الجليلان فقد وردت في سورة يس التي تكرّر فيها الفعل "خَلَقَ" بتصريفاته المختلفة عشر مرّات([79])، لم تتقدم عليها في ذلك إلا سورة واحدة هي سورة النحل، فقد تكرر الفعل ومشتقاته إحدى عشرة مرّة. وقد ورد الاقتران فيها في سياق إقامة الحجة على منكري البعث والنشور بأسلوب الاستفهام التقريري، كما في قوله تعالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ"([80])

وقد سبقها قوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ".([81])

فأمر الإماتة والإحياء، وأمر الخلق والإيجاد شأنه يسير على الله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ([82])وسرّ الاقتران بين هذين الاسمين الكريمين أنّ الآية لما كانت واردة في مقام الاستدلال على البعث والنشور والإحياء بعد الموت بين أن وصف الله بالعلم باقترانه بوصفه سبحانه بالخلق يظهر أنّ علم الله بإعادة الخلق محيط بكل عضو وكل جزء في الإنسان فيعيده سبحانه كما كان، لا يخفى عليه من ذلك شيء حتى من مات حرقاً أو مات غرقاً فتناهشته سباع البحر، كما أخبر سبحانه: قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (سورة ق:4) ويصدق لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا. فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ. فَفَعَلَتْ. فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فَقَالَ:

([77]) ابن عاشور. التحرير والتنوير. (ج 14/ 78).

([78]) السمرقندي. بحر العلوم،(ج 2/ 254).

([79]) كذلك ورد في سورة الروم.

([80]) [يس : 81]

([81]) [يس : 77-79]

([82]) [يس : 82]

مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ! قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ. فَغَفَرَ لَهُ، وَقَالَ غَيْرُهُ: مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ.([83]) فقد أعاده الخلاق العليم كما كان، فلم يخف البر، ولم يخف البحر ذرّة من ذرات جسمه([84])، على الرغم من الطريقة التي فكر فيها من الخلاص من عذاب الله تعالى.

ذكر الرازي أنّ للعلم مدخلاً في الإعادة بعد الموت، وذلك أنّ الله تعالى لا يشتبه عليه جزء أحد على الآخر، فهو كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم من ظلمهم وتعدّيهم بما كانوا يقولون، وبما كانوا يعملون.([85]) فإعادتهم إلى الحياة بعد الموت هينة يسيرة، فالله سبحانه هو الخلاق، وهو العليم، فوقع الاقتران في المكان المناسب من الآية الكريمة.

وأشار بعض العلماء إلى أنّ ظاهرة الاتساق والانسجام في الخلق لا تصدر إلا عن عالم، فقال:" لا يصح الفعل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالِم".([86])

مما يؤكد انسجام هذا الاقتران ووروده متناسقاً مع سياق الآية الكريمة ومضمونها، فلا يصح ورود اسم آخر غير اسمه الخلاق، ولا يصح اقترانه إلا باسم واحد من أسماء الله الحسنى هو اسمه العليم.

الخاتمة

وبعد، فإن الاقتران الثنائي بين أسماء الله الحسنى ظاهرة فريدة في نظم القرآن الكريم، وتعدّ مظهراً من مظاهر إعجازه، وهي ظاهرة عجيبة تستدعي مزيداً من البحث والنظر في نظم هذا الكتاب المعجز.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج، نوردها في النقاط الآتية:

أولاً: ورد الاقتران الثنائي بين اسمه تعالى العزيز واسمه العليم في ستة مواضع من القرآن الكريم كلها مكية، وهذا يلبي ما تتطلبه تلك المرحلة من تأسيس العقيدة بالتعريف بأسماء الله الحسنى. وقد تقدّم في هذا الاقتران اسمه العزيز على العليم في المواضع كلها لمعاني اقتضتها طبيعة السياق القرآني.

ثانيا: ورد في سياق الحديث عن كتابين عظيمين: هما كتاب الوحي – كلام الله– والإشادة به بوصفه حكم الله وشريعته بين البشر، ومنهج الحياة الذي يهدي للتي هي أقوم، والهادي والموجّه لكل ما يقوم به الإنسان من نشاط فكري وعلمي وعملي. وكتاب الكون – فعل الله– وبدائع صنعه تعالى فيه بوصفه الدالّ على وحدانية الله المتفرّد بالخلق والأمر.

ثالثاً: العزيز من أسماء الله الحسنى هو الذي لا يغلب في قول، فقوله عزيز، ولا يغلب في فعل، ففعله عزيز لا يجاريه أحد، ولا يتأبى عليه شيء. ولا يكون كذلك إلا إذا كان قوياً قاهراً مقتدراً، ولأنّه كذلك فهو لا مثيل له ولا نظير. ولقهره يعزّ من يشاء ويذل من يشاء بحسب إرادته هو، وحكمته هو جلّ جلاله. وجلّ المعاني التي ذكرها العلماء تندرج تحت هذا المعنى.

رابعاً: العليم من أسماء الله الحسنى هو المحيط علمه بكل شيء مهما كان، قليلاً أو كثيراً، ظاهراً أو باطناً، إحاطة دقيقة مفصلة مطابقة لواقع ذلك الشيء، أو ماضيه أو مستقبله، داخل نطاق الزمان أو خارجه.

خامساً: الفتاح من أسماء الله الحسنى هو الذي يقضي ويحكم في شؤون الخلائق بما يقتضي فتح مغاليق الأمور المادية والمعنوية لإحقاق حقّ ونصره، أو لخذلان باطل وكسره.

([83]) البخاري. الجامع الصحيح، أحاديث الأنبياء/ حديث الغار، (ح 3222). مسلم، الجامع الصحيح، التوبة/ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، (ح 4950).

([84]) كما في رواية الإمام أحمد في المسند، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَقَدْ دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ مَا عَمِلَ خَيْرًا قَطُّ قَالَ لِأَهْلِهِ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ اذْرُوا نِصْفِي فِي الْبَحْرِ وَنِصْفِي فِي الْبَرِّ فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ فَجَمَعَاهُ ثُمَّ قَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ قَالَ مَخَافَتُكَ قَالَ فَغُفِرَ لَهُ لِذَلِكَ. انظر: ابن حنبل. المسند. (ج 22/ 249، ح 10704).

([85]) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (ج 28/ 131).

([86]) القشيري. لطائف الإشارات، (ج 2/ 144).

سادساً: ورد اقتران اسمه الفتاح باسمه العليم في سياق الحكم والفصل بين فريقين، فريق الحق وفريق الباطل، في ثلاث قضايا، هي: الرزق، وأيّ الفريقين على هدى وأيهما على ضلالة، وقضية أخرى تتطلب الفصل والحكم، هي فردية التبعة والمسؤولية. وبعبارة أخرى: ورد في سياق واحد، هو ذلك الذي يتطلب فصلاً في الحكم والقضاء في قضايا جدلية بين دعاة الحق والهداية ودعاة الباطل والضلالة. ومن آثار هذا الاقتران وانعكاساته على المخاطب أنه الضامن لبقاء الحق واضحاً أبلجاً لا لبس فيه ولا غموض.

سابعاً: اقترن اسمه "الخلاّق" باسمه العليم في آيتين مكيتين في القرآن الكريم تقدّم فيهما اسمه الخلاّق على اسمه العليم، وقد وردتا في سياق واحد هو محاجّة الكافرين وإقامة الحجّة عليهم.

ثامناً: الخالق من أسماء الله الحسنى هو موجد الأشياء ومقدّرها قبل وجودها على غير نظير سبق. والخلاق صيغة مبالغة تعني من يكثر منه فعل الخلق بما يشاء، كيف يشاء، متى يشاء.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، (1399هـ)، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، (بيروت: المكتبة العلمية)

الأصفهاني، الحسين بن أحمد المعروف بالراغب الأصفهاني. (بلا تاريخ)، **مفردات القرآن**، تحقيق: سيد كيلاني (بيروت: دار الكتب العلمية)

البخاري محمد بن إسماعيل. **الجامع الصحيح**،(1407هـ) تحقيق: مصطفى البغا (بيروت: دار ابن كثير)

البقاعي، إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**(1415هـ).. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. (بيروت: دار الكتب العلمية)

البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر، (بلا تاريخ) **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (بيروت: دار الفكر)

الجرجاني، علي بن محمد. (1405هـ)، **التعاريف**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي)

ابن جزيء الكلبي، محمد بن أحمد، (1995)، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ضبط وتصحيح: محمد هاشم (بيروت : دار الكتب العلمية،

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(1404هـ)، **زاد المسير في علم التفسير**، (بيروت: المكتب الإسلامي)

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي(1379)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. (بيروت: دار المعرفة).

ابن حنبل، أحمد بن محمد. **المسند**، (بدون تاريخ) (القاهرة: مؤسسة قرطبة)

أبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف (1422هـ)، **البحر المحيط**، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، (بيروت: دار الكتب العلمية).

الخطابي، أبو سليمان، حمد بن محمد (1412هـ). **شأن الدعاء**، تحقيق: أحمد الدقاق، (بيروت: دار الثقافة العربية)

الرازي، محمد بن عمر(1421هـ)، **مفاتيح الغيب**،(بيروت: دار الكتب العلمية)

الزجاج، أبو إسحق إبراهيم بن محمد (1974). **تفسير أسماء الله الحسنى**، تحقيق : أحمد الدقاق، (دمشق: دار الثقافة العربية)

الزجاجي. عبد الرحمن بن اسحق(1986)، **اشتقاق أسماء الله الحسنى**، تحقيق عبد الحسين المبارك، (بيروت: مؤسسة الرسالة)

الزمخشري، محمود بن عمر،(بلا تاريخ) **الكشاف**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر،(1421هـ) **تفسير أسماء الله الحسنى**، تحقيق: عبيد العبيد، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، العدد 112).

السعدي، **عبد الرحمن بن ناصر ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (1420). (بيروت: مؤسسة الرسالة)**

السمرقندي، نصر بن محمد، أبو الليث،(بلا تاريخ) **بحر العلوم** ، تحقيق: محمود مطرجي، (بيروت: دار الفكر).

السنوسي، محمد بن يوسف، الأسماء الحسنى، تحقيق: نزار حمادي، بيروت: مؤسسة المعارف، بدون تاريخ.

الشعراوي، محمد متولي(1997)، **خواطري حول القرآن**. (مصر: مطابع أخبار اليوم)

الطبري، محمد بن جرير (1420هـ). **جامع البيان**. تحقيق: أحمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة).

ابن عاشور، محمد الطاهر(1997)، **تفسير التحرير والتنوير**، (تونس: دار سحنون)

ابن عجيبة، أحمد بن محمد(2002)، **البحر المديد**، (بيروت: دار الكتب العلمية)

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (1987). **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، (قبرص: الجفان والجابي)

الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تحقيق: محمد علي النجار (المكتبة العلمية، بدون تاريخ)

القرطبي، محمد بن أحمد(2006). **الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته**. تحقيق: عرفان حسونة،(القاهرة: المكتبة الحضرية).

القشيري عبد الكريم بن هوازن(2007). **لطائف الإشارات**، تعليق: عبد اللطيف عبد الرحمن (بيروت: دار الكتب العلمية)

ابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي(1994). **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت: دار الفكر)

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (بلا تاريخ)، **لسان العرب**،(بيروت: دار صادر)

النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم. (بلا تاريخ)، **الجامع الصحيح**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

قائمة المراجع المرومنة:

Ibn Al-Atheer, Abu Al-Sa`adat Al-Mubarak Bin Muhammad Al-Jazari, (1399 AH), Anihaya fi Gharib Al-Hadith Wa Al-Athar, (In Arabic) edited by Taher Al-Zawy and Mahmoud Al-Tanahi, (Beirut: The Scientific Library)

Al-Isfahani, Al-Hussein Bin Ahmed, known as Al-Ragheb Al-Asfahani. (Without history), Vocabulary of the Qur’an, (In Arabic) edited by Sayed Kilani (Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyya)

Al-Bukhari Muhammad bin Ismail. Al-Jami al-Sahih, (1407 AH). (In Arabic) Edited by: Mustafa Al-Bogha (Beirut: Dar Ibn Kathir)

Al-Biqai, Ibrahim bin Omar, Nazm Addorar fi Tanasb al-Ayat Wa Assowar (1415 AH), (In Arabic) Edited by: Abdul Razzaq Al-Mahdi. (Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiya)

Al-Baiddawi, Nasir al-Din Abdullah bin Omar, (without history) Anwar al-Tanzil wa Asrar al-Ta`wil, (In Arabic), (Beirut: Dar al-Fikr)

Al-Jorjani, Ali bin Muhammad. (1405 AH), Ataarif, edited by: Ibrahim Al-Abyari, (In Arabic) (Beirut: Dar Al-Kitab Al-Arabi)

Ibn Jazee` al-Kalbi, Muhammad Ibn Ahmad, (1995), Al-Tasheel Li Uloom Atanzeel, (In Arabic) Correction and Correction: Muhammad Hashem (Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya,

Ibn al-Jawzi, Abu al-Faraj Abd al-Rahman bin Ali (1404 AH), al-Masir in the science of interpretation, (In Arabic) (Beirut: The Islamic Office)

Ibn Hajar al-Asqalani, Ahmad bin Ali (1379), Fath al-Bari Sharh Sahih al-Bukhari. (In Arabic) (Beirut: House of Knowledge).
Ibn Hanbal, Ahmed bin Muhammad. Musnad, (In Arabic) (n.d.) (Cairo: Cordoba Foundation)
Abu Hayyan Al-Andalusi, Atheer Al-Din Muhammad Bin Yusuf (1422 AH), Al-Bahr Al Muheet, (In Arabic) edited by Adel Abdul-Mawjod and others, (Beirut: Dar Al-Kutub Al-'Ilmiyya).
Al-Khattabi, Abu Sulaiman, Hamad bin Muhammad (1412 AH).Sha’no Addoa’a, (In Arabic) edited by: Ahmad al-Dakkak, (Beirut: Dar Athaqafa Alarab1yya)
Al-Razi, Muhammad bin Omar (1421 AH), Mafatih al-Ghayb, (In Arabic) (Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyya)
Al-Zajjaj, Abu Ishaq Ibrahim bin Muhammad (1974). Tafsir Asma’ Allah al-Hosna, (In Arabic) edited by: Ahmad Al-Dakkak, (Damascus: Arab Culture House)
al-Zajjaji. Abd al-Rahman bin Ishaq (1986), Ishtiqaq Asma’ Allah al-Hosna, (In Arabic) Edited by Abd al-Hussein al-Mubarak, (Beirut: Foundation for the Message)
Al-Zamakhshari, Mahmoud Bin Omar, (Without History) Al-Kashaf, (In Arabic) edited by: Abd Al-Razzaq Al-Mahdi (Beirut: Dar Ihyaa’ Atorath Al-Arabi).
Al-Sa’adi, Abd al-Rahman bin Nasir, (1421 AH) Tafsir Asma’ Allah al-Hosna, (In Arabic) edited by: Obaid Al-Ubaid, (Medina: The Islamic University, No. 112).
Al-Sa’adi, Abd al-Rahman bin Nasir, Tayseer al-Karim al-Rahman fi Tafsir Kalam al-Manan (1420). (In Arabic) (Beirut: Mo’asast al-Risalah)
Al-Samarqandi, Nasr Bin Muhammad, Abu Al-Layth, (without history) Bahr Al-Ulum, (In Arabic) edited by Mahmoud Mutraji, (Beirut: Dar Al-Fikr).
Al-Senussi, Muhammad Ibn Yusuf, Al-Asmaa’ Al-Hosna, (In Arabic) Edited by Nizar Hammadi, Beirut: Mo’asasat Al Maaref, undated.
Al-Sha’rawi, Muhammad Metwally (1997), My thoughts on the Qur’an. (In Arabic) (Egypt: Akhbar Al-Youm Press)
Al-Tabari, Muhammad bin Jarir (1420 AH). Jami’ Al-Bayan. (In Arabic) Investigative: Ahmed Shaker (Beirut: Mo’asast al-Risalah).
Ibn Ashour, Muhammad al-Taher (1997), Tafsir al-Tahrir Wa Al-Tanweer, (In Arabic) (Tunisia: Dar Sahnoun)
Ibn Ajiba, Ahmad Ibn Muhammad (2002), Al Bahr Al Madeed, (In Arabic) (Beirut: Dar Al Kutub Al Alilmyyah)
Al-Ghazali, Abu Hamid Muhammad bin Muhammad (1987). Al-Maqsid Al-Asna Fi Sharih Ma’ani Asma’ Allah al-Hosna. (In Arabic) (Qobross:Al-Jaffan wa Al-Jabi
Al-Fayrouz Abadi, Majd al-Din Mohammad Ibn Ya`qub. Basa’ir Thawi Al-Tamyeez Fi Lata’if Al-Kitab Al-Aziz, (In Arabic) Edited by: Muhammad Ali Al-Najjar (Al-Maktabah Al-Ilmiyyah, undated)
Al-Qurtubi, Muhammad bin Ahmed (2006).Al-Asna Fi Sharih Asmaa’ Allah Al-hosna. (In Arabic) Reported by: Irfan Hassouna, (Cairo: Urban Library).
Al-Qushairy, Abdul-Karim bin Hawazin (2007). Latif Al-Isharat, (In Arabic) Commentary: Abd al-Latif Abd al-Rahman (Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyya)
Ibn Kathir, Ismail Ibn Kathir al-Dimashqi (1994). Tafsir Al-Qur’an Al-Azeem, (In Arabic) (Beirut: Dar al-Fikr)
Ibn Manzoor, Jamal al-Din Muhammad Ibn Makram, (without history), Lisan al-Arab, (In Arabic) (Beirut: Dar Sader)
Al-Naysaburi, Muslim bin Al-Hajjaj bin Muslim. (No date), Al-Jami’ al-Sahih, (In Arabic) edited by: Muhammad Fouad Abdel-Baqi. (Beirut: Dar Ihyaa’ Atorath Al-Arabi).